٦٠ عبد العزيز الديرينى والسلطان المملوكى لاجين

أن يجتمع لإنسان ـ أى إنسان ـ التصوف بإشراقاته الراقية، واللغة بمعرفة أسرارها العالية، والأدب بتنوع فنونه الرفيعة.. مع التقوى والورع والإيمان فلابد أن يكون هذا الإنسان موضع تقدير الناس واحترامهم وحبهم وإجلالهم، يستوى فى ذلك الكبير والصغير. خاصة الناس أو عامتهم.

ولقد اجتمعت هذه جميعها للرجل الصالح عبد العزيز الديرينى، المتصوف، واللغوى، والأديب، تلميذ أبى الفتح الواسطى، وامتداد مؤسس الصوفية بالعراق الإمام أحمد الرفاعى، ومعاصر قطباها بمصر السيد أحمد البدوى، والسيد إبراهيم الدسوقى.

إن لوحة حياة هذا المتصوف الأديب اللغوى الصالح تشير إلى أنه أحد مشايخ التصوف المعروفين فى مصر بالزهد والورع، والتقوى والإيمان، أو كما يذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته المشهورة: «هو الشيخ الورع، ذو الحالات الفاخرة، والأحوال الشريفة، والكرامات المشهورة، والمصنفات الكثيرة. فى التفسير والفقه واللغة والتصوف وغير ذلك من الأعمال الجليلة..».

فالشيخ عبد العزيز الديرينى إلى جانب كونه مُلِمًا بعلوم الدين فقيهًا بأمورها، عليماً بجوانب ديننا الحنيف، فهو أيضاً عالم بأسرار لغتنا العربية، نحوها وصرفها قواعدها وبلاغتها، وبعد ذلك هو أديب مبدع، له فى المجال الأدبى آثار لا تمحى، فقد عُرف عنه نظم الشعر فى أغراضه المختلفة، بشكل يعده نُقَّادُ العرب ومؤرخوه فى هذه الفترة واحداً من الشعراء المجيدين.

إن إجادته للشعر يشير إليها ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى» بما يفيد ذلك، حيث يقول: «.. وللشيخ عبد العزيز الديرينى نظم كثير شائع، منه منظومته التى ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم العلم والفضل».

ثم يذكر ابن تغرى بردى أمثلة لشعره فى هذا الصدد، منه قصيدة مطلعها:

وأذكر الآن رجالا كأنجم يزهو بها الزمان
مشايخى الأئمة الأبرار وإخوتـــى الأخيـــار

إلى أن يقول وكأنه يشير إلى الفترة التى عاشها من سنوات القرن السابع الهجرى فيؤرخ لها قائلا:

لم يبق فى الستين والستمائة من أشياخنا إلاَّ فئة

ونظرة أخرى إلى لوحة حياة هذا الرجل الصالح كما تسجلها كتب السير والتراجم، وتقرها أقلام مؤرخيها.. تقول إن الشيخ عبد العزيز الديرينى ولد فى قرية صغيرة من قرى مصر فى وسط الدلتا، هى قرية «ديرين»، وهى بلدة تقع على بعد كيلو مترين من «نبروه» بمحافظة الدقهلية، وأنه عاش عصر المماليك فى مصر. حيث عاصر فى آخر أيامه الملك المملوكى المنصور لاجين. وكان هذا الملك متديناً، كثير القيام والصيام، قليل الأذى والشر، ولذلك كان من الطبيعى أن يجل العلماء، ويحترم رجال الدين، ويقدِّر المتصوفين منهم خاصة حق قدرهم، فكان يسعى إليهم ويطلب ودهم، وكانوا هم من جانبهم يحضرون مجالسه التى كانت تزخر بألوان من المناقشات حول الدين والدنيا..

كان من هؤلاء العلماء والمتصوفة الذين يتصدرون مجالس الملك لاجين.. الشيخ عبد العزيز الديرينى. ولم يكن هذا الشيخ الوقور يسعى إلى هذه المجالس إلاَّ بطلب من لاجين، وكثيراً ـ كما يذكر الرواة والمؤرخون ـ ما طلب إليه هذا الملك الحضور إلى القاهرة للانتفاع بعلمه.

لقد بلغ تقدير الملك لاجين للشيخ عبد العزيز الديرينى حداً أنه أنشأ له مسجداً سماه باسمه وهو على قيد الحياة، حتى يتيح له فرصة اللقاء بتلاميذه ومريديه فى حلقات علمية وأدبية. حتى إذا جاء من قريته «ديرين» إلى القاهرة توجه إلى هذا

المسجد المقام حتى الآن بحى الروضة بالقاهرة وأقام فيه وصلى بالناس، وعقد حلقاته. . . ولذلك عرف هذا المسجد بإسمه بعد وفاته إلى اليوم.

وتستطرد كتب التراجم والسير فى حديثها عن الشيخ عبد العزيز الديرينى فتذكر أنه كان كثير العلم، واسع الإطلاع، يصحبه الكثيرون من العلماء والفقهاء، ومنهم مَنْ انتفع بعلمه وصحبته فى مدن وقرى وسط الدلتا، بجوار مسقط رأسه «ديرين»، والتى يعرفها المؤرخون ببلاد الريف، وفى ذلك يسجل الشعرانى فى طبقاته قائلا: «وكان مقر ومقام الشيخ عبد العزيز الديرينى ببلاد الريف ـ وسط الدلتا ـ من أرض مصر، وكان الناس يقصدونه من سائر الأقطار العربية، حاملين إليه مشاكلهم الفقهية التى يطلبون منه حلاً لها».

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الديرينى أخذ العلم عن عدد من العلماء والفقهاء ورجال التصوف، وفى مقدمة هؤلاء رجل التصوف الأكبر، الإمام أبى الفتح الواسطى، وفى ذلك يقول الديرينى نفسه: «لقد أشار سيدى أحمد الرفاعى، على سيدى أبى الفتح الواسطى بالسفر إلى الإسكندرية، فسافر إليها. وفيها أخذ عنه ناس لا يحصون، وكنت أنا واحداً منهم، وكان سيدى أبو الفتح الواسطى مبُتْلَىً بالإنكار عليه، فاجتمع علماء الإسكندرية وفقهاؤها وعقدوا فيما بينهم وبينه المجالس العلمية، فكان يقرعهم الحجة بالحجة. ويسفه قولهم، ويبين سوء رأيهم، ويوضح قلة معرفتهم وكان خطيب مسجد العطارين من أشدهم عليه. .».

وفى إشارة عبد العزيز الديرينى ما يوضح أنه فى هذا العصر كان هناك اهتمام بالعلم والعلماء، برغم تدهور الأحوال السياسية، فيكفى أن تحكَم مصر بالمماليك وليس بأبنائها. غير أن الاهتمام بالعلم وأهله كان من سمات هذا العصر، وإلا فما معنى اهتمام السلاطين أنفسهم بذلك، واهتمام العلماء المصريين أنفسهم بغيرهم من العلماء العرب؟ وما معنى أن تقام هذه المناقشات بين علماء الإسكندرية وبين أبى الفتح الواسطى القادم بأفكار جديدة من العراق. لو لم يكن هناك اهتمام علمى؟ وربما كان ذلك اهتمام بالدين وعلومه، فليس هناك ما يلوذ به المصريون ـ إبان المحن غير الرجوع إلى الدين وفهمه فهماً صحيحاً، ومعرفة آراء مَنْ يأتى بتفسيرات جديدة فيه وهو علم على أى حال.

كذلك تشير المصادر التاريخية إلى كرامات الديرينى تلك التى تعددها الكتب القديمة، ولعلنا نسجل ما كتبه ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى» قائلا: «طلب جماعة من فقراء الصوفية كرامه من الشيخ الديرينى، فقال لهم: وهل ثمة كرامة أعظم من أن الله تعالى يمسك بنا الأرض ولم يخسفها وقد استحققنا الخسف».

وقد توفى الديرينى سنة ٦٩٧ هـ ودفن بمسجده بقرية ديرين بمحافظة الدقهلية وهو غير المسجد الموجود بحى الروضة بالقاهرة الذى بناه له السلطان ليصلى فيه الناس بالقاهرة.

* * *

obeikandl.com